الاختلاف

د. ماهر طه المقطري

الاختلاف ضرورة وواقع لابد منه

الفرق بين الاختلاف المحمود والمذموم

آداب الاختلاف

أسباب الاختلاف المذموم

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف

محتويات الموضوع:

١- الاختلاف ضرورة وواقع لابد منه.

٢- الفرق بين الاختلاف المحمود والمذموم.

٣- أداب الاختلاف.

٤- أسباب الاختلاف المذموم.

تأليف

الدكتور / ماهر بن طه المقطري

١٨ رجب ١٤٤٠هـ – ٢٥ مارس ٢٠١٩م

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين .. أما بعد

فهذا كُتيب مختصر في موضوع الاختلاف حملني عليه ابنتي –حفظها الله– التي أرادت هي وزميلاتها في المدرسة أن تجمع مادة علمية حول موضوع التنوع والاختلاف، وبعد أن عرضت عليّ ما تم جمعه في هذا الموضوع الحساس إذا هو دعوة لاحترام الاختلاف والتنوع مهما كان وكيف كان!

وهذا التصور قاصر وعليه ملاحظات، فليس كل اختلاف محمود، و الدين الاسلامي وان ساوى بين البشر من حيث الاصل والخلقة ونهى أن يفخر أو يبغي بعضهم على بعض إلا أنه فرق بين المؤمن والكافر والتقي والفاجر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ الحجرات: ١٣ ونزولا عند طلب وحاجة بناتي الطالبات وحاجة المجتمع لهذا الموضوع المهم اضطررت للكتابة فيه على عُجالة وضيق في الوقت، فكان هذا الكُتيب، وأحببت نشره لتعم الفائدة، والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لي ولعباده.. آمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا..

الاختلاف ضرورة وواقع لابد منه:

قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴾ هود: ١١٨

لو شاء الله لجعل الناس في مستوى واحد وقالب واحد في الشكل والفكر والاعتقاد والطموح والذوق وفي كل شيء، ولكم أن تتصوروا لو حصل ذلك كيف ستكون الحياة؟؟

ولكن من رحمة الله وحكمته أن جعل الناس مختلفين وسخر بعضهم لخدمة بعض، وابتلاء بعضهم ببعض، لكي تستمر عجلة الحياة، وتتحقق حكمة الاختبار والابتلاء من خلق الناس، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴾ الفرقان: ٢٠ وقال تعالى: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ الزخرف: ٣٢

فالاختلاف سنة كونية لا يستطيع إنكارها أحد أو إنكار حكمتها البالغة، ففي خلق المتضادات دليل باهر على كمال قدرة الله وحكمته، فالليل والنهار، والشمس والقمر، والذكر والأنثى، والمنتِج والمستهلِك، والجميل والقبيح، والإيمان والكفر، والجنة والنار، وغير ذلك قد خلقه لحكمة بالغة ملموسة في حياة الانسان تدل على الحكيم الخبير.

ومن فوائد الاختلاف أيضًا أنه رحمة وتوسيع على الناس كالاختلاف في فروع الشريعة (مسائل الفقه)، وقد ورد في الحديث (واختلاف أمتي رحمة) وهذا الحديث وان كان سنده لا يصح إلا أن أهل العلم ذكروه كثيرا في كتبهم للتعبير عن اختلاف الصحابة والأئمة في فروع الشريعة. ولو أراد الله لقطع ذلك الخلاف بنصوص قطعية لا تدع للعلماء والمجتهدين مجالا للاختلاف؛ ولكنه رحم هذه الأمة ووسع عليها في كثير من الأحكام؛ فذكر قواعد عامة وخطوط عريضة تسمح للمجتهدين النظر فيها والاجتهاد؛ فتنوعت الأحكام والأقوال في كثير من المسائل الشرعية؛ لتناسب جميع الناس والظروف والبيئات، قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: "ما يسرني أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا لم يكن لنا رخصة". ولهذا يُعد الاختلاف الفقهي وتعدد المذاهب ثروة تشريعية عظيمة تلبي حاجات الأُمة في كل زمان ومكان، ولا يعرف قيمة ذلك إلا أهل العلم والبحث والنظر.

وحتى على مستوى الطعام واللباس والمنتجات لا يكفي حاجة الناس صنف واحد، بل لابد من تنوع المنتجات والسلع لتلبي حاجاتهم، وبالمقابل لابد من تنوع الأذواق والطلب، ولهذا قيل: لولا اختلاف الآراء لبارت السلع) فلا يضيق صدركم بمجرد الاختلاف فإن له حكمة بالغة.

الاختلاف المحمود والمذموم:

الاختلاف المحمود: هو الذي لا يخرج عن دائرة الفطرة السليمة وعموم الشريعة الاسلامية، ولا ينبغي أن يُفسد الود. ومن الاختلاف المحمود اختلاف التنوع كالآراء المتعددة التي تصب في مشرب واحد، وقد يسميه بعضهم: الخلاف الصوري، أو اللفظي، أو الاعتباري، أو اختلاف وجهات النظر، كالنظر إلى ثلاثي الأبعاد ووصفه بأوصاف مختلفة كلها تصدق عليه. ومعظم اختلاف سلفنا الصالح في تفسير كتاب الله وأحكامه الشرعية من هذا النوع (اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد)، ولا ينبغي ذم هذا الاختلاف وإنما الذم في عدم مراعاة آداب الاختلاف.

وأما الاختلاف المذموم: فهو ما يوصل إلى الفُرقة و العذاب، ومنه اختلاف التضاد، كالخلاف في أمرين أحدهما حق لابد اتباعه والآخر باطل لابد اجتنابه كالصدق والكذب، وإبليس وجبريل، والاسلام والكفر، والحق والباطل، فهنا ينبغي للعاقل أن يتحرى الحق والصواب ويجتنب الباطل والخراب، ولا حرمة لذلك الباطل ولا كرامة، ولكن لابد من مراعاة الأدب و التعامل الشرعي مع الكافر والمؤمن والبعيد والقريب ومن تحب ومن تكره.

آداب الاختلاف:

أولًا: لابد من تحرير ومعرفة مَوضع الخلاف والنزاع، هل هو اختلاف تنوع (أي خلاف محمود) أو خلاف تضاد حقيقي ، فأما إن كان محمودًا فلا يعتبر ذلك خلافًا لاسيما إذا كان فيما لا يملكه الإنسان كشكله ولونه ونسبه وبلده، ولا ينبغي للشخص أن يتشدق بما ليس من كسبه وإنما هو ابتلاء من الله واختبار لحكمة بالغة، ولهذا قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ الحجرات: ١٣ ، وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) رواه مسلم. ولهذا كثير من النزاعات سببها غير وجيه، و كان ينبغي تجاوز ذلك الخلاف أو عدم الالتفات إليه أصلا لأنه ليس خلافا حقيقيا، وقد يكون الخلاف في شيء معين ولعدم تحرير موضع النزاع يتطور ويتشعب إلى خلافات ونزاعات أخرى لم تكن في الحسبان!

ثانيا: إعطاء الخلاف حجمه، فالخلاف درجات ومستويات، وتضخيم الخلاف الصغير أو وجهات النظر أو المسألة الخلافية المعتبرة، يؤدي إلى مفاسد كثيرة لا تحمد عقباها، ويمكننا إذا أعطينا الخلاف حجمه أن نتعاون ونتفق في كثير من الأمور فلا يؤثر الخلاف على مودتنا وديننا ومصالحنا، وتضخيم الأمور الصغيرة غلو وتطرف وطغيان، وتحقير الأمور العظيمة تضيع وتفريط،

وكلاهما مذموم، والحق في ذلك العدل والانصاف وإعطاء كل ذي حق حقه، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف المنافق: (وإذا خاصم فجر) رواه البخاري ومسلم.

ثالثا: النظر إلى مقصود المُخالِف ومعناه العام دون الوقوف عند كل لفظة من الفاظه؛ فالعبرة بالمعاني لا بالألفاظ والمباني؛ كما هو معروف في أصول الفقه وقواعده؛ وربما كان الطرفان متفقان ولكن بسبب جزئية معينة يمكن تجاوزها أو تعديلها أو أنها أصلا غير مقصودة ينشب الخلاف ويحتد!!

رابعًا: استثمار المتفق عليه، فبعض الناس بمجرد الخلاف يعلن العداوة الكاملة، وينسى القدر المتفق عليه والذي كان يستطيع الاستفادة منه، والتعامل معه، ومن الأمثلة التوضيحية لذلك معاهدة النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود في الدفاع عن المدينة مع وجود الخلاف العقدي الكبير بين الطرفين، وكذلك ما خص الله به أهل الكتاب في بعض المعاملات كأكل طعامهم ونكاح نسائهم مع بقائهم على الكفر؛ لوجود عامل مشترك بين المسلمين وأهل الكتاب وهو أصل الإيمان بالله والرسل والكتب والجنة والنار.

خامسا: ترك ما يزيد الخلاف ويوتر العلاقة وليس فيه فائدة إقناع وحجة، مثل السباب ورفع الأصوات والاستهزاء ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ الأنعام: ١٠٨ ، في هذه الآية نهى الله

عن سب آلهة المشركين حتى لا يكون ذريعة للمشركين في سب الله والاعتداء، مع أنهم مشركين كفار لا كرامة لهم ولكن الحكمة تقتضي ذلك والسب يؤذي ولا يفيد وليس من خُلق المسلم!

سادسا: قصد الحق في طرح الحجج والخطاب، وأسلوب الاقناع الممزوج بالأدب والثقة والتواضع، والحذر من الجدال بالباطل، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ: ٢٤ ، فهذا تعليم من الله تبارك وتعالى لنبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام في مخاطبة الكفار وحوارهم في أهم المسائل والقضايا (التوحيد)، بقصد الحق وتقديم الحجة واستخدام أسلوب الحوار والإقناع بتقديم السؤال الاستنكاري ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ثم يجيب بجواب الواثق ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ ثم التواضع في الأسلوب والطرح ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي أحدنا لابد أنه على حق والآخر على باطل، مع علمه يقينًا أنه على الحق وهم على الباطل.

سابعا: مراعاة الوقت والمكان والجهة التي تختلف معها، فالوقت قد يكون ليس مناسبا للخلاف والجدال، كالحج لا جدال فيه، وكذلك لا يحسن الاختلاف أمام العدو والشامت، و كذلك لا ينبغي مخالفة الوالدين والمعلم والسلطان وينبغي التأدب معهم وإذا اضطر الشخص لمخالفتهم فليكن فيما لابد منه مع لزوم الحكمة والبيان الواضح مع الأدب والإقصار، ويدخل تحت هذا البند مخاطبة

الناس على قدر عقولهم، فالأولى الإعراض عن الجاهلين والسفهاء، وكذلك ترك الخلاف أو تجاهله أثناء وجود فتنة يزيدها الخلاف سعيرا، وعند السلطان الظالم الباطش أو الأحمق الجاهل المتهور، وليس المقصود تميع الحقائق والمداهنة بالباطل فإن ذلك لا يجوز، ولكن المقصود وضع الشيء المناسب في مكانه والاحتراز والحذر مما يزيد الخلاف تعقيدا أو يؤدي إلى منكر أعظم، وكل ذلك وفق الشريعة الاسلامية، وكثير من الخلافات تُعالج بالصبر والإعراض لا بالتأجيج والعناد.

ثامنًا: أن تضع نفسك مكان الذي تخالفه ، فتعامله بما تحب أن تُعامل به وتنصفه كما تُنصف نفسك.

تاسعا: الحرص على التوافق أولى من الحرص على الاختلاف فإن الاختلاف شر وإذا لم يُحاط بحكمة وأدب أورث شراً والعياذ بالله، ولهذا ينبغي التجاوز فيما يمكن التجاوز عنه من الخلافات.

وبالجملة فأهم أداب الاختلاف نلخصها في أمرين:

الاول: العدل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ ﴾ المائدة: ٨، والثاني: حُسن الخلق، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ النحل: ١٢٥

أسباب الاختلاف المذموم:

أسباب الاختلاف كثيرة وتعود إلى عوامل داخلية وخارجية، وأبرزها:

١- الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي.

٢- عدم التثبت في نقل الأخبار وسماعها.

٣- سوء الظن والمسارعة في اتهام الآخرين.

٤- حب المناصب والتصدر والظهور والشهرة.

٥- الحسد والكبر، والشح والتنافس لأجل الدنيا.

٦- ضعف الإيمان والورع وإيثار المصالح الشخصية.

٧- ادعاء الجُهّال للعلم والمعرفة، و تصدر من ليس بكفو.

٨- الفتنة والتحريش من جهات لها مصالح في إفساد ذات البين.

٩- التعصب لجنس أو بلد أو حزب أو مذهب أو جهة أو شخص.

وبالجملة يمكننا تلخيص أسباب الخلاف المذموم في أمرين:

الأول: مخالفة الشرع واتباع الهوى، والثاني: سوء الخُلق والتربية. ولهذا ينبغي على كل مسلم تحكيم شرع الله، والتزام أخلاق الإسلام.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.